● " الثَالِثُ : الإِيْمَانُ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ " :

يَتَضَمَّنُ اليومُ الآخِرُ : **الإِيْمَانَ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ** :

اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعةِ أنَّ الجَنَّةَ والنَّارَ مخلُوقَتَان ، لا تَفْنَيَانِ ، وأنَّ اللهَ أَعَدَّ الجَنَّةَ للمُتَّقِيْنَ خَالِدِيْنَ فيها أبدًا ، وأعدَّ النَّارَ للكَافِرِيْنَ والمنَافِقِيْنَ خَالِدِيْنَ فيها أبدًا ، وبعضُ عُصَاةِ المسلمين يدخلون النار ، ولكنَّهُم لا يُخَلَّدُونَ فيها .

خَلَق الله الجنة ، وجعَلَ فيها نعيمًا مقيمًا ، وَبَيَّنَ لَنَا مَا فيها من أنواع هذا النعيم في القرآن والسُّنَّة ؛ حتى تشتَاقَ النفوسُ والقلوبُ إليها ، ولا تركَنَ إلى الدنيا .

وكذلك النَّارُ بيَّن لنا ما فيها من أنواع العذاب ؛ حَتَّى تَنْفِرَ النفوسُ من المعاصي ، ولا تركَنَ إلى الدُّنْيَا الفانِيَةِ ، ويعلمَ الإنسانُ أنَّ مآله ؛ إما إلى جنةٍ ، وإما إلى نارٍ .

● والآياتُ الدَّالَّةُ على نعيمِ الجنةِ كثيرةٌ ، مِنْهَا :

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وَقَوْلُهُ : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)﴾ [الإنسان:٢٠-٢٢].

وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

● وَأَمَّا الآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى النَّارِ :

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢].

وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر:٤٣-٤٤].

وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر:٤٨].

فَهِي دَارُ الشَّقَاءِ والعَذَابِ والعَنَاءِ ؛ لما فيها من الأغلالِ والسَّعِيْرِ والماءِ الحَمِيْمِ ، ويَكْفِي حديثُ أبي هريرة ﷺ ، وفيه : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟** » قَالَ : قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ ،**

حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا » ([1]) ؛ فعُمْقُ جَهَنَّمَ إِذَا أُلْقِي فيه شيءٌ مسافةُ وصولِهِ : سبعُونَ خريفًا !! فهذا عُمْقُها ؛ فكَيْفَ بَعَرْضِهَا ؟!!

فَمَا الشَّيءُ الذي يَسْتَحِقُّ في الدُّنْيَا أَن تُعذَّب بسببِهِ في هذِهِ النَّارِ ، وتَتَحَلَّى ، وتَتَرُكَ عبادة اللهِ وأوامرَهُ ؟!!

- **ذهَبَتِ الشَّهْوَةُ ، وبَقِيَتِ الشِّقْوَةُ :**

فأيُّ شَهْوَةٍ في الدُّنْيَا ؛ فَهِي زَائِلَةٌ ، تَسْتَمْتِعُ بها لحَظَاتٍ ، ثُمَّ تَزُولُ لَذَّتُهَا ؛ فَكَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : " ذهَبَتِ الشَّهْوَةُ ، وبَقِيَتِ الشِّقْوَةُ " ؛ فإذا حصل الإنسان على طَعَامٍ حرامٍ ، ولو من أغلى الأنواعِ ؛ فبَعْدَ قضَاءِ شهْوَتِهِ وأَكْلِهِ ، مَاذَا يَحْدُثُ ؟!! ذهبتْ اللذةُ ، وبقِيَ الإِثْمُ ؛ فالشهواتُ ؛ حتَّى وإن استَمْتَعَ بها الإنسانُ لحظاتٍ ، ولكِنْ متاعُهَا قليلٌ جدًّا ؛ فلا يجلس الإنسان على طعامٍ أكثَرَ من نصفِ ساعةٍ ، وكذلك شهوةُ الجماعِ – وغيْرُها مِنَ الشهواتِ – ؛ فَمُتْعَتُها قليلةٌ ، ثُمَّ إلى زوالٍ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٧٧] ؛ فعلامَ كلُّ هذا الشقاءِ والعذابِ ، والاقْتِتَالِ عَلَى الدُّنيا ؟!! فالإنسانُ سَيَتْرُكُ الدُّنْيَا ، ويَخْرُجُ مِنْهَا صِفْرَ اليَدَيْنِ ؛ إلاَّ مَا كَانَ للهِ .

- **لابُدَّ أَنْ تَتَذَكَّرَ – دَوْمًا – نَعِيْمَ الجَنَّةِ وَعَذَابَ النَّارِ :**

([1]) أخرجَهُ مُسْلِمٌ (٢٨٤٤) .

لأنَّ تَذَكُّر نعيمِ الجَنَّةِ يجعَلُ العبدَ صابرًا عَلَى هَمِّ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيْهَا من متاعبِ وابتلاءاتٍ ؛ فَلَيْسَ هناك أحدٌ غير مبتلىً ، ولكنَّهُ إِذَا اسْتَيْقَنَ أَنَّ هُنَاكَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَواتُ والأَرْضُ تَنْتِظُرُه ، فِيْهَا كلُّ أنواعِ النَّعِيْمِ الذِي حُرِمَ منه سيَصْبِرُ ؛ ففي الحديثِ القُدُسِيّ مِنْ رَبِّ العِزَّةِ أَنَّهُ قَالَ : « **أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» ([1]) ؛ فمهما تفَكَّر الإنسانُ ، وتخيَّلَ ؛ فالجنة بخلافِ ما أتى في بالِهِ ؛ فإذا نظر إلى أجْمَلِ قَصْرٍ ، وأجمَلِ سيَّارَةٍ ، والنعيمُ الذي يعيشُ فيه أَغْنَى رجلٍ في العالم ؛ فكُلُّ هذا لا شيءَ بجانِبِ الجَنَّةِ ، ولا يُعَادِلُ ذَرَّةً في نعيمها ؛ فليس هناك شيءٌ في الدنيا يُشْبِهُ ما في الجنة غيْرَ مسميَّاتٍ فقط ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ **وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾ [البقرة:٢٥] ؛ فهو تشابُهٌ فقط في المسمَّى ، ولكن في الحقيقة ؛ فَلاَ ؛ فليس قَصْرُ الدُّنيا مثلَ قَصْرِ الجَنَّة ، ولا نعيمُ الدُّنْيَا مثلَ نعيمِ الجنة ؛ فاللؤلوةُ الواحِدَةُ في الجَنَّةِ طولُها ستُّون ذِرَاعًا ، غير عرضها ؛ فكيف بِبَاقِي الأَشْيَاءِ فِيْهَا ؟!

ولكنَّ الإنْسَانَ لقِلَّةِ عِلمِهِ وظلمِهِ لنَفْسِهِ يركَنُ إلى الدنيا الفانيةِ التي لا قيمة لها ؛ فعُمُرُها قصيرٌ جدًّا ، ومهما ما كان فيها من ابتلاءاتٍ ؛ فهي لا تُسَاوي شيئًا بجانبِ عذابِ النارِ .

كلَّما أمْعَنْتَ النَّظَر في الآياتِ والأحاديثِ التي جاءَ فيها ذِكْرُ الجَنَّةِ ؛أعانك هَذَا على تَرْكِ الدُّنْيَا ؛ فنَحْنُ في زَمَنِ الفتن وهي محيطةٌ بالعبدِ في كلِّ مكانٍ ؛ فإذا

([1]) **أخرجه البخاريُّ (٣٢٤٤) ، ومسلمٌ (٢٨٢٤) عن أبي هريرةَ ﷺ .**

مَشَى في الطريق رأى فتنةَ النساءِ ، وإذا جَلَس مع أهله يفْتِنُونَهُ في الغالبِ ، وإذا جلس أمامَ التلفاز افتتن فتنةً من أشدِّ الفتن ؛ فَلَيْسَ ثَمَّ مَنْ يُعِيْنُهُ على إقامَةِ شَرْعِ اللهِ كَمَا يحِبُّ اللهُ ويَرْضَى ، ولكن إذا أتى إلى دَرْسِ العِلْمِ سيَرَى الصالحين ، ويجالِسُهم ؛ فَعَسَى أن يكون لك فيهم عونٌ على الخيرِ .

● **إذا التفَّتِ الشَّهَواتُ حَوْلَ الإِنْسَانِ ؛ فعلَيْهِ بِتَذَكُّرِ نَعِيْمِ الجَنَّةِ :**

إذا التفَّتِ الشَّهَواتُ حولك ، وخِفْتَ على نَفْسِك من الوقوع فيها ؛ فعليك بتذكُّرِ نعيم الجنة ، وما أعده الله فيها لعباده الصابِرِين عَنِ الشهواتِ الحقيرةِ ، وأنها – أعني الجنَّةَ – لا تَفْنَى ، ولا يَنْتَهِي نعيمُها ؛ فليس فيها مُنَغِّصَاتٌ ؛ فقد يعيشُ الإنسانُ في نعيمٍ من نعيمِ الدنيا ، ولكنه ملئٌ بالمنغِّصَاتِ والمكدِّراتِ !! فمِنَ المحال أن يعيشَ الإنسان في الدُّنيا في نعيمٍ كاملٍ ؛ فمَهْمَا كان مُنَعَّمًا ، ويَسْكُنُ القُصُورَ ، ويَمْلِكُ السَّيَّاراتِ والخَدَمَ ؛ فلابُدَّ من ابتلاءٍ يُنَغِّصُ حياتَهُ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ [البلد:٤] ؛ فلا يوجَدُ نَعِيْمٌ كاملٌ في الدنيا ؛ فالنَّعِيْمُ الكَامِلُ في الجَنَّة أعدَّهُ ربُّ العالمين لعباده الصالحين ، ولكِنَّ نعيمَ الدنيا صنعَهُ البَشَر ، ولا مُقَارَنَةَ بَيْنَ ما أعدَّهُ اللهُ سبحانه وتَعَالَى ، وما صنَعَهُ البَشَر ؛ فكُلُّ هذه أمورٌ تَجْعَلُ قَلْبَ الإنسانِ معلقًا بالآخرةِ ، وإذا تعَلَّق بها يَسْهُلُ عليه الامتثالُ لِمَا أمرَ اللهُ بهِ ، والانتهاءُ عمَّا نَهى عنْهُ .

فإذا مرَّت عليه آيةٌ فيها نعيمُ الجَنَّةِ ؛ وَقَفَ مَعَها ، وتخيَّل أنه سيملِكُ القُصُورَ التي تَجْرِي من تحتها الأنهارُ ، ووقَفَ عند وصْفِ الأنهار التي في الجنة ؛ قَالَ – تَعَالَى –

: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [مُحَمَّد:١٥] ؛ فأنْهَار الدُّنيا مَلِيْئَةٌ بالطِّيْنِ ، ومُلَوَّثَةٌ ، ولكن : تأمَّل وانْظُرْ إلى وصْفِ أنهارِ الجنةِ ؟ وكذلك القُصُورِ فيها من الذَّهَب والفِضَّةِ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

● وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « **جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ، عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ** » (١) .

وفيها أجمل أنواع الطعام والفاكهة التي لم يرها الإنسانُ ، ولم يسمَعْ عنها ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾ [الواقعة :٢٠-٢١] .

فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف عُنْقُودَ العِنَبِ في الجَنَّةِ ؛ أنَّهُ يكفي أهلَ الأرض كلَّهُم ؛ ففيها ما لا عينٌ رأت .

وإذا كانت النَّفْسُ لا تَشْتَاقُ إلى الجَنَّةِ ؛ فلابُدَّ من زَجْرِها ، وتَوْقِيْفِهَا عَنِ الشهواتِ ؛ بأن يُذَكِّرَها بالنارِ وعذابها وحَمِيْمِها ؛ فالكلام عَنِ الجَنَّة والنَّارِ سببٌ في زيادة اليقين عند الإنسانِ .

---

(١) أخرجه البُخَارِيُّ (٤٨٧٨) ، ومُسْلِمٌ (١٨٠) عن أبي موسى الأشعريّ .

● **وكذلك ؛ يَتَضَمَّنُ الإيمانُ باليوم الآخِرِ** : فتنةَ القَبْرِ ونعيمَهُ وعذابَهُ ، وهذا ثابتٌ بالكتاب والسنة والإجماع .

● **ومَا فِتْنَةُ القَبْرِ ؟**

هي سُؤَالُ الميّتِ في قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ ، ودينِهِ ، ونبيّهِ ؛ فإن كان من أهلِ الإيمان ثبَّتَهُ اللهُ ؛ فيَقُولُ : رَبي اللهُ ، وديني الإسلام ، ونبيّ محَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧].

● وعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ، قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : « اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلَاثًا ، زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ « هَاهُنَا » ، وَقَالَ : " وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ : يَا هَذَا ، مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ " ، قَالَ هَنَّادٌ : قَالَ : " وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ؛ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللَّهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِيَ الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ " ، قَالَ : " فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَقُولَانِ : وَمَا يُدْرِيكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ « زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ » ؛ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

[إبراهيم: ٢٧] " الْآيَةُ – ثُمَّ اتَّفَقَا — قَالَ : " فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ " ، قَالَ : « فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا » قَالَ : « وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ » قَالَ : « وَإِنَّ الْكَافِرَ » ؛ فَذَكَرَ مَوْتَهُ ، قَالَ : " وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ؛ فَيُجْلِسَانِهِ ؛ فَيَقُولَانِ : لَهُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ كَذَبَ ؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ " ، قَالَ : « فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا » قَالَ : « وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ » .

زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ ، قَالَ : « ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى ، أَبْكَمُ ، مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ ؛ لَصَارَ تُرَابًا » ، قَالَ : « فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً ، يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، إِلَّا الثَّقَلَيْنِ ؛ فَيَصِيرُ تُرَابًا » قَالَ : « ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ » .([1])

فمن أصولِ اعتقادِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ : أن تعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ الميتَ عِنْدَمَا يُوضَع في قبرِهِ ، سيأتيهِ ملكانِ ، ويُجْلِسانِهِ ، ويسألانهِ : مَنْ ربكَّ ؟ وما دينُكَ ؟

([1]) رواه أبو داود في " السُّنن " (٤٧٥٣ و ٤٧٥٤) ، وابن ماجه (١٥٤٨) ، وأحمد (١٨٥٣٤) ، والنَّسائيُّ (٤/٧٨) ، وفي " الكبرى " (٢١٣٩) ، وهو في " صحيح أبي داود " (٤٧٥٣) ، و " أحكام الجنائز " (ص : ١٥٦) .

ورد الحديثُ مطوَّلاً ومختصرًا .

ومَنْ نبيُّك ؟ فالمسلم الذي عَاشَ على (لا إله إلا الله) ؛ ستكونُ الإجابةُ يسيرةً عليه ؛ لأنَّ مَنْ عاش على شيءٍ مات عليه ، ثُمَّ بُعِثَ عليه ؛ فمَنْ عاش في الدُّنْيَا على التوحيدِ ، وعلى طاعَةِ اللهِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ ، إذا نَزَلَ قَبْرَهُ ، وأُغْلِقَ عَلَيْهِ ، وَأَتَى لَهُ الملكانِ ، وَسَأَلاَهُ ، سَيَرُدُّ بِيُسْرٍ ؛ لأنَّهُ في الدُّنْيَا كانَ عندهُ يقينٌ وإيمانٌ أنه سيَنْزِلُ قبرَهُ وحيدًا في ظلمةٍ ، وسيَتْرُكُهُ الأهْلُ والأصحَابُ ، وسيَتْرُكُ كلَّ متاعِ الدُّنيا ، ويُلَفُّ في قطعةِ قُمَاشٍ ، ويُسْأَلُ ، ويرُدُّ على قَدْرِ ما معه من إيمانٍ ؛ فإذا ثبَّتَهُ اللهُ عِنْدَ السؤالِ ؛ فسيرى مقعدَهُ من الجَنَّةِ ، ويُلْبَسُ منها ، ويُفْرَشُ له منها ، ويجالِسُهُ عملُهُ الصالِحُ .

وقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يُبْعَثُ** » ([1]) ؛ أي : رُوحُ المؤمِنِ عبارةٌ عن أنها طيرٌ تأكلُ من شَجَرِ الجَنَّةِ ؛ فَإِذَا قَالَ أَحَدٌ : هَلِ الرُّوحُ والجَسَدُ يَتَنَعَّمَانِ ، أمِ الرُّوحُ فَقَطْ ؟ والجَوَابُ : أَنَّ الرُّوحَ (أَحْيَانًا) تَتَّصِلُ بالجَسَدِ ، أَوْ تَنْفَصِلُ عنه ، و(أَحْيَانًا) تَسْرَحُ في الجنة ، ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، ولكن ما يُهِمُّنَا أنَّ هناك نعيمًا وعذابًا في القبر للبَدَنِ والرُّوحِ ، وهذا اعتقادُ أهْلِ السُّنَّةِ.

([1]) رَوَاهُ ابن ماجه (٤٢٧١) ، وأحمد (١٥٧٧٨) ، و (١٥٧٨٧) ، ومالكٌ في " الموطأ " (٢٤٠/١) ، والنَّسَائيُّ في " الكبرى " (٢٢١١) ، وهو في " صحيح " ابن ماجه (٤٢٧١) ، وفي " الصحيحة " (٩٩٥) .

● **قَالَ ابْنُ أَبِي العِزِّ** : " وَلَيْسَ السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ، وَأَفْسَدُ مِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ ! وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ تَرُدُّ الْقَوْلَيْنِ .

وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا، بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَةً عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِهِ " ([1]) .

● **وَأَمَّا المنَافِقُ وَالكَافِرُ :**

إذا أتى لهما الملكَانِ ، وسألهما : مَنْ رَبهما ؟ وما دِيْنُهُما ؟ وَمَا النَّبِيُّ الذي بُعِثَ فيهما ؟ سيقولُونَ : لا نَدْرِي ؛ فيَضْرِبهما الملَكَانِ بِمِطْرَقَةٍ لو ضُرِبَ بها جبلٌ ؛ لأصبح ترابًا ، والمطْرِقَةُ : عِبَارَةٌ عن حديدَةٍ عريضةٍ كبيرةٍ يَضْرِبُ بها ملائكةُ العذابِ .

فهما في الدنيا كانا لا يعلمان شيئًا عن كتابِ الله ولا سنَّةِ رسولهِ ﷺ ، وكذلك كثيرٌ من الناس – إلا من رحم اللهُ – لا يعلمون شيئًا عن ربهم ، ولا عن نبيهم ، ولا عن دينهم ؛ بل يجهلُونَ ؛ حتى أقلَّ الأشياءِ ؛ ككيفية الاغتسالِ من الجنابةِ ، وحتى لا يعلمون شيئًا عن سيرة نبيهم ﷺ وصحابتِهِ . فكثيرٌ من هؤلاءِ مسلِمُون بالاسم فقط ! فمنهم مَنْ لا يصلي ، ولا يصوم ، أو يصلي مرَّةً ، ثم يَتْرُكُ ؛ فهؤلاء إذا لم يَتُبِ اللهُ عليهم ، أو يَعْفُ عَنْهُمْ ؛ فَسَيُعَذَّبُونَ في قُبُورِهِمْ ؛ فَالإِنْسَانُ

([1]) " شرح الطحاوية " (٥٧٩/٢) ت الأرناؤط .

في قَبْرِهِ ؛ إِمَّا مُنْعَّمٌ ، وإما مُعَذَّبٌ ، وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة ، وهناك آياتٌ كثيرةٌ ، وأحاديث غفيرةٌ تدلُّ على ذلك.

● **الأدِلَّةُ عَلَى إثباتِ عَذَابِ القَبْرِ :**

فعذابُ القبرِ ثابتٌ بالكتاب والسنة والإجماع :

● **فأمَّا الكتابُ :**

كقوله – تَعَالَى – : ﴿ **لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [الأنعام:٩٣].

وقوْلِهِ : ﴿ **وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)** ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

وقوْلِهِ : ﴿ **مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا** ﴾ [نوح:٢٥] .

وقوْلِهِ : ﴿ **سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** ﴾ [التوبة:١٠١].

● **قال الطبريُّ** : " وقولُهُ : ﴿ **سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ** ﴾ ، يَقُولُ : سُنَعَذِّبُ هَؤُلاءِ المنَافِقِيْنَ مَرَّتَيْنِ ؛ إِحْدَاهُمَا : في الدُّنْيَا ، والأُخْرَى : في القَبْرِ " (١) .

---

(١) " تفسير الطبري " (١٤/٤٤١) .

● **وأمَّا السُّنَّةُ :**

فقد قَالَ رَسُولُ ﷺ : « **فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ** » (١) .

وَقَوْلُهُ : (**فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا**) ؛ **أي** : لولا أَنْ أَخْشَى ألا يدفِنَ بَعْضُكُمْ بعضًا لدعى اللهِ أن يسمعَنَا من عذابِ القبرِ ما يَسْمَعُهُ ، ولكنَّهُ خَشِي إذا سأل الله أن يُسْمِعَ الأمَّةُ عذابَ القبرِ ؛ فلن يَدْفِنَ أَحَدٌ الآخَرُ .

● وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ ؛ فَقَالَ : « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ** » ، **ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ ؛ فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟ قَالَ : « لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا** » (٢) .

فأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ جَرِيْدَةً ، ووضَعَهَا عَلَى قبريْهِما ، وأَخْبَرَ أنهما يُعَذَّبَانِ ؛ فأمَّا أَحدُهما : فَكَان لا يَتَحَرَّزُ من بَوْلِهِ ؛ فعُذِّبَ بِسَبَبِ ذلكَ الأَمْرِ ، والآخَرُ : كان يمشي بالنَّمِيْمةِ ، ويُفْسِدُ بين الناسِ .

● **والفَرْقُ بَيْنَ الغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ :**

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٨٦٧) .

(٢) رواه البخاريُّ (٢١٨) ، ومسلمٌ (٢٩٢) .

أَنَّ الغِيْبَةَ : هِي ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يَكْرَهُ ؛ كَمَا جَاءَ في حديثِ أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ ، قال : « **أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟** » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ** » ، قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : « **إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ ؛ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ؛ فَقَدْ بَهَتَّهُ** » (١) .

وأما النَّمِيْمَةُ : هي نَقْلُ الكلامِ بَيْنَ النَّاسِ بِقَصْدِ الإفْسَادِ ، وهي أَصْعَبُ وأَشَدُّ ؛ قَالَ رَسُولُ ﷺ : « **لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ** » (٢) ، ومعنى (قَتَّاتٌ) : نَمَّامٌ .

أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الجريدَةَ ، ووضعَهَا ؛ حتى يُخَفَّف عنهما من العَذَابِ ، جَعَلَ البعضُ الآنَ يَضَعُ (وَرُودًا وأَشْجَارًا) عِنْدَ القُبُورِ ، وهذا الأَمْرُ بِدْعَةٌ ما أنزل الله بها من سلطانٍ ؛ لأنه لم يفعلها الصحابة ، ولا غيرُهم مِنَ التابعين ، وما فعله النَّبِيُّ ﷺ كان واقعةَ حالٍ .

قال رسُولُ اللهِ ﷺ : « **العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ ، وَتُوُلِّيَ ، وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ** » (٣) .

وقال ﷺ : « **اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ** » (١) .

---

(١) أخرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٩) .

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٦٠٥٦) ، ومُسْلِمٌ (١٠٥) .

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٣٣٨) ، ومسلمٌ (٢٨٧٠).

● **إذا استقامَ العَبْدُ في الدُّنْيَا عُوفِي مِنَ العَذَابِ :**

إذا استقامَ العَبْدُ في الدُّنْيَا ، وثَبَتَ على الصِّرَاطِ المستقيمِ ، وكان يخاف ربَّهُ ويَخْشَاهُ في السِّرِّ والعَلَنِ كان جَزَاؤُهُ من جِنْسِ عملِهِ ؛ فإذا مَاتَ ، وَدَخَلَ قَبْرَهُ ؛ ثَبَّتَهُ اللهُ عِنْدَ السُّؤَالِ ، ولم يُعَذِّبْهُ ، وَحَتَّى ضَمَّةُ القَبْرِ ، وَهِي شَدِيْدَةٌ على الكافر تَكُونُ هَيِّنَةً علَيْهِ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت:٣٠] ؛ فَمَنْ كانَ مؤمنًا مستقيمًا تنزلت عليه ملائكة الرحمة في الدنيا وفي الآخرة ، وبَشَّرَتْهُ بأنه لا خَوْفٌ عليه ولا حُزْنٌ ؛ فلن يَحْزَنَ على ما فَاتَ ؛ سواءٌ على أولادِهِ الذينَ سَيَتْرُكُهُمْ ، وغير ذلك ، ولن يخاف مما هو آتٍ عند الخروج من القبور ، يوم البعث والنشور ، يوم الفزعِ الأكبر .

● **من أسبابِ إعراضِ المسلمين عن الدين : عدمُ تَذَكُّرِ الآخِرَةِ :**

إذا آمن العبد إيمانًا صادقًا باليوم الآخر من سؤالِ القبرِ ، والبعثِ ، وتطايرِ الصُّحُفِ ، والوقوفِ بَيْنَ يَدَي اللهِ ، والمرُورِ عَلَى الصِّرَاطِ ، والجنة والنار ، وغير ذلك مما يحدث في هذا اليوم ؛ أقبل على ربِّهِ ، وعلى كل ما أمِرَ بِهِ ، وانتهى عن كلِّ ما نهي عَنْهُ .

---

(١) رواه أبو داود (**٣٢٢١**) ، وابن السُّنِّي في " عمل اليوم والليلةِ " (٥٨٥) ، والحاكم (**١٣٧٢**) **عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ** ، وهو في " صحيح " أبي داود (٣٢٢١) ، و " أحكام الجنائز " (ص : ١٥٦) .

ولو أنَّ الإنسان لم يؤمن إيمانًا باشَرَ قلْبَهُ بكلِّ ما يحدث في هذا اليوم ؛ فسيكون هذا من أقوى الأسباب التي تجعَلُهُ يُعْرِضُ عن دين الله ؛ فسَبَبُ إعراضِ المسلمين عن الدِّيْنِ هو : عَدَمُ تَذَكُّرِهم بالآخرَةِ ؛ فقد زَكَّى اللهُ أنبياءَهُ في القرآن بهذا الأمْرِ ؛ فَقَالَ : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)** ﴾ [ص : ٤٥- ٤٧] ؛ فَزَكَّاهم أنهم كَانُوا دومًا يَتَذَكَّرُونَ الدَّارَ الآخِرَةَ ، ودومًا يَتَذَكَّرُونَ أَنهُم سَيَمُوتُونَ ، ويَنْزِلُونَ قُبُورَهُمْ ، وَيُحَاسَبُون ، ويُبْعَثُون ، ثُمَّ يَقِفُونَ في يومٍ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلْف سنة ، وهل سيكونون في ظلِّ عَرْشِ الرحمن ، أم في الحَرِّ الشديدِ ؟ ثُمَّ الحَسَاب ، وتَتَطَايَر الصُّحُف ، ثُمَّ يَقِفُ ، ويُقَرِّرُهُ الله بما فعله ، وغير ذلك من الأهوالِ الشديدةِ ، ولكن هؤلاء الأنبياء الله أخلصهم بخالصة ذكرى الدار ، وجعلهم من المصطفين الأخيار .

● **التفكُّرُ في (الآخِرَةِ) يجعل الإنسانِ دَائِمَ المحاسبَةِ لِنَفْسِهِ :**

فالعبد الدائِمُ التَّفَكُّر في أمْرِ الآخرة ، وأنه سيموتُ ، ويترك الدنيا ، ويدخل قبْرَهُ ، ويُحَاسَبُ وَحْدَهُ ؛ فكُلُّ هذا يجعلُهُ مُسْتَقِيْمًا محاسبًا لنفسه لا يغفل عنها ، وإذا لم يتفكَّرْ فيها ؛ غَفَلَ عن محاسبةِ نفسهِ ، وهذا – كَمَا ذَكَرنَا – مِنَ الأَسْبَابِ التي جعلت الأمة تصل إلى ما وصلت إليه ؛ فالغالب عليها (الآن) الفَسَادُ ، وكلُّ هذا بسببِ – أولاً – تضييعِ الصلاة ، ثُمَّ بعدم التفكُّرِ في الآخرة ، ولكنهم لو تذكَّرُوا الدار الآخرة ؛ سيَتَغَيَّرُ الحَالُ ، ولذلك النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ ظلَّ ثلاثة عشر سنة

في مكَّةَ ، يُعَلِّم أصحابَهُ التوحيد ؛ فكثيرٌ من الآيات التي نزلت في الجَنَّةِ والنَّارِ والآخِرَةِ والحِسَابِ نَزَلَتْ في مكَّةَ ، وأما المدِيْنَةُ ؛ فَبَعْدَمَا استقرَّ الإيمان في قلوبهم نزلت فيها آيات الأحكام مثل سورة " البقرة وآل عمران " ، ولكن في البداية ؛ لكي يُصْلِحَ قُلُوبهم أصلحها بذكْرِ الدَّارِ الآخِرَةِ ؛ حَتَّى تستقيمَ القلوبُ ، وتَنْصَلِحَ ، ولو صلَحَتِ القلوب بالإيمان ، وذِكْرِ الآخرةِ سَهُل العملُ .

● **لماذا أَصْبَحَتِ الطاعةُ شَاقَّةً على العِبَادِ ؟** لقد أصبح أداءُ العِبَادَةِ في كثيرٍ من الأحيانِ ثقيلاً على كثيرٍ من الناسِ ، كالصلاةِ ونحوها من العبادات الأخرى ؛ لأنَّ القَلْبَ ممتلئٌ بالفسادِ ، بِسَبَبِ البُعْدِ عَنِ دينِ اللهِ .

● **وَكَيْفَ نُصْلِحُهُ ؟**

إصلاحهُ بأمورٍ كثيرةٍ ، ومنها : بذكرِ الدَّارِ الآخِرَةِ ، وأنا أنْصَحُ أيَّ مُسْلِمٍ يَتَصَدَّرُ إلى الدَّعْوة أن يَبْدَأَ أول ما يبدأ به مع المدعوين – بعد الإيمان باللهِ – بالتذكيرِ بالدَّارِ الآخِرَةِ ، وَيُرَسِّخَ عندهم اليقينَ بالجنة والنار ؛ لأنَّ اليقين عند المسلمين ضئيلٌ ، فأنتَ إذا جلَسْتَ مع كثيرٍ منهم شعرتَ بضعف اليقين ؛ كأنهم لا يُصدِّقُون أن هناك حسابًا وعذابًا ؛ بل لقد وصل الحال إلى أسوأ من ذلك ؛ فَهُنَاكَ (الآن) من يُكذِّبُ الكتاب والسنة ، وهم لا يَقُولُونها صَرَاحَةً ، ولكن أفعالهم تدل على ذلك ؛ فالعبد إذا تَيَقَّنَ أن هُنَاكَ في القبر عذابًا ؛ فلن يَتَجَرَّأَ على اقتراف المعاصي ؛ فلا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ التصديقُ مَعَ التَّخَلُّفِ عن العَمَلِ ، ومُبَارَزَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ – وَتَعَالَى بالمعَاصِي ؛ فالمبارَزَةُ تَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الإيمانِ

الشديدِ ؛ فإذا كان عنده (يقينٌ جازمٌ) أن ما يفعلَهُ سيكون سببًا في دخولِهِ النار ؛ فلن يفعل ذلك ؛ فَنَسَأَلَ اللهُ أن يَشْرَحَ صدورَ المسلمين ، ويصرفَ قلوبهم عن المعاصي ، ويردَّهُم ردًّا جميلاً ؛ فالله على كلِّ شيءٍ قديرٌ .

◘ مِنْ ثَمَرَاتِ الإيمَانِ باليَوْمِ الآخِرِ[1] :

● الأولى : الرغبة في فعل الطاعة ، والحرص عليها ؛ رجاءَ ثوابِ ذلك اليومِ العظيمِ :

فالطَّاعة تُثَقِّلُ ميزانَ العبد ، وتُمْلأُ صحيفةُ حسناتِهِ منها ، ويحاول العبدُ جاهدًا ألا يفعل السيئاتِ ما استطاع حتى لا تُكتبَ عليه ؛ فلابد أن يكون تركيزُهُ كيف يملأ صحيفتَهُ من الحسناتِ ، ولا يُكْتَبَ عليه سيئاتٌ ؛ فَلَوْ كانَ عِنْدَكَ يقينٌ بهذا اليومِ ؛ فإنك – ولابدَّ – ستفعل ذلك .

● الثانية : الرهبةُ عند فعل المعصية ، والرضَا بها ؛ خَوْفًا من عقابِ ذلك اليومِ :

فمَنْ آمَنَ باليوم الآخر ؛ خَافَ عند فعل المعصية ؛ لأنه لا يعلم بما يُخْتَمُ له ، وأنه سوف يُبْعَثُ على ما يَمُوت عليه ؛ فيَخْشَى أن يفعل معصية ، أو يجلس في مكانٍ يُفعل فيه المعاصي ، أو يجلس مع العصاة ، ويخوض معهم فيما يخوضون فيه من الباطل ؛ لأنه (أحيانًا) يكون الإنسان مستقيمًا ، ولكنه في لحظةٍ من اللحظاتِ يَضْعُفُ ، فمثلاً : إذا وجد أهلَهُ يجلسون أمام التلفاز لمشاهدةِ ما يغضب اللهَ ؛

---

[1] " شرح الثلاثة أصول " للشيخ ابن عثيمين (ص:٥٣).

فيَخْشَى أن يُنْكِرَ عليهم ذلك ؛ حتى لا يهاجموهُ ، ثم يجلس معهم ، وهذا لا يجوزُ ؛ فكيف تدعو الناس ، وأنت تعصي الله معهم ؟!!

وإيَّاك أن يُلبِّسَ عليك الشيطان ، ويقول لك : إنهم سيستَثْقِلُونَك إذا نَهيْتَهُم عن المعاصي ! فلا تجلس معهم (أبدًا) ، وهم يشاهدون ما حرَّم الله ؛ فلابد أن تُبيِّنَ لهم حرمة ما يفعلونه ، ولكن بالحُسْنَى والرِّفْقِ ، وإن لم يستجيبوا ؛ فلا تجلس معهم ؛ حتى يُقْلِعُوا عما يفعلونه ؛ فلا تُدْهِنْ معهم ؛ فيُدْهِنُون ؛ لأن صاحب المعصية يحبُّ أن يُوقِعَ من يَدْعُوه ؛ لأنه لا يستطيْعُ أن يكون مثلَهُ ؛ فيريدُ أن يجعلَهُ هو مثلَهُ يَعْصِي الله !!

فإياكَ أن تميلَ معه ؛ فلا تُقَلِّلْ من شأنك عند الله بارتكابِ المعاصي ، واحْذَرِ المعصية ؛ خشيةَ أن تموت عليها ؛ فتبعثَ على ذلك ؟!!

- **الثالثة : تسليةُ المؤمنِ عَمَّا يَفُوتُهُ من الدُّنيا بما يَرْجُوه من نعيم الآخرة وثوابها :**

فالإنسانُ إذا علِم أن هناك جنةً عرضها السموات والأرض ، نعيمها مقيمٌ ، وفيها كلُّ سعادة ، وأعلاها : رؤيةُ ربِّ العالمين ؛ فلا يعادله نعيمٌ ؛ فإذا تذكَّرَ الإنسانُ كلَّ هذه الأشياءِ ؛ ستهُونُ عليه الدنيا .

وكمثالٍ : شخصٌ لم يُقدِّر الله له الزواجَ ؛ فيُسَلِّي نفسَهُ ، ويقول : سوف يكون لي أجملُ زوجةٍ في الجنة ، أو كان عقيمًا ؛ فيُسَلِّي نفسَهُ ، ويقول : سوف أطلب من

الله في الجنة أن يرزقني بأجملِ طفلٍ ، أو إذا كان مريضًا ؛ فيُسَلِّي نفسَهُ : أنه لن يمرضَ في الجَنَّةِ ؛ فليس في الجنة تعبٌ ، ولا نصَبٌ ، ولا مرضٌ ، أو إذا ضاع منه المالُ والشبابُ ؛ فسيكون شابًّا يملك ما لا يملك ملوكُ الأرضِ ؛ فتذكُّرُ الآخرةِ يُهوِّنُ عليك ما فاتك من الدُّنْيَا ؛ فتعلم (يقينًا) أنَّ ربَّ العالمين الكريم المنان = سيُعطيك ما لا يتخيَّلُهُ عقْلُكَ ؛ فإذا تذكَّرْتَ ذلك ؛ هانَتْ عليك الدنيا ، واحتقَرْتَهَا ، وزَهِدْتَ فيها ، ولن تنظر إليها ، وقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ** » (١) ، وهذا الحديثُ مُختَلَفٌ في تصحيحِهِ ، ولكن : حَتَّى وإن لم يَصِحَّ ؛ فمعناه صحيحٌ ؛ لأنَّ اللهَ – سبحانه – يحبُّ العبدَ المتعلِّق بهِ ، وبما عنده من نعيمٍ ؛ فَإِذَا مَلَك الإنسانُ الدُّنْيَا بما فيها من قصورٍ وسياراتٍ ، وغير ذلك ، ولكن ماذا بَعْدُ ؟! فأجملُ شيءٍ ملكتهُ ، أو تملِكُهُ في هذه الحياةِ ، سَوْفَ تَذْهَبُ قيمتُهُ وزَهْوَتُهُ ، ولا بُدَّ ؛ فلا تحْزَنْ عَلَى ما فاتَكَ من الدُّنْيَا ؛ قال – تَعَالَى –: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد:٢٣].

◘ البَعْثُ :

دَلَّ الشَّرْعُ والعَقْلُ والحِسُّ عَلَى وُجُودِ البَعْثِ (٢) :

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) ، والطبرانيُّ في " الكبير " (٥٩٧٢) ، والحاكم (٧٨٧٣) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ، وهو في " صحيح " ابن ماجه (٤١٠٢) ، و" الصحيحة " (٩٤٤) .

(٢) " شرح الثلاثة أصول " للشيخ ابن عثيمين (ص:٥٤–٥٥) .

● **فَأَمَّا الشَّرْعُ :**

فقد قال – تَعَالَى – : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقال – تَعَالَى – : ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن:٧].

● **وَأَمَّا الحِسُّ :**

فقد أرى اللهُ بعضَ عباده إحياء الموتى في الدنيا ، وفي سورة البقرة خمسةُ أمثلةٍ على ذلك :

● **المثال الأول** : قوم موسى حين قالوا له : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)** ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦] ؛ فأنزل الله عليهم الصاعقة عقابًا لهم ؛ فأماتهم ثم أحياهم ؛ حتى يشكروا النعم التي هم فيها من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ومَنَّ عليهم بموسى عليه السلام .

● **المثال الثاني** : في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنوا إسرائيل ؛ فقال – تعالى – : ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)** ﴾ [البقرة:٧٢-٧٣].

● **المثال الثالث** : في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم ؛ فرارًا من الموت ؛ قال – تعالى – : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة:٢٤٣].

● **المثال الرابع** : في قصة الذي مَرَّ على قريةٍ ميتَةٍ ؛ فاستَبْعَدَ أن يُحييها الله ؛ قال – تعالى –: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**﴾ [البقرة:٢٥٩] ؛ فأماته ثُمَّ بعَثَهُ بَعْدَ مائة عام ؛ حتى يُبيِّنَ له أن ذلك عليه يسيرٌ .

● **المثال الخامس** : في قصة إبراهيم الخليل حين سأل اللهَ أن يُرِيَهُ كيف يحيي الموتى ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [البقرة:٢٦٠].

فكلُّ هذه آيات تدلُّ على أن البعث حقٌّ ، وأيضًا ذكرنا – قبلَ ذلك – : أن الذي خلق الخلق – ابتداءً – ليس بعيدًا عليه أن يبعثهم – انتهاءً – ؛ فإذا قمنا بعمَلِ مُقَارَنَةٍ أَيُّهُمَا أَصْعَبُ : هل الخلق ابتداءً ، أم إعادتُهُ ؟ فَسَتَرَى أَنَّ الخَلْقَ – ابْتِدَاءً – أصعبُ ، ولكن كلاهما على الله هينٌ ؛ فلا شيءَ يَعْظُمُ عَلَيْهِ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [يس:٨٢].

● وأما دَلالةُ العَقْلِ :

فقَدْ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾ [الروم:٢٧] ؛ فَالذِي بدَأَ الخَلْقَ هُوَ اللهُ ، وهو (أيضًا) مَنْ سَيُعِيْدُهُ ، وكلُّ هذه الأمور هيّنَةٌ عليه ؛ فلا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

وأيضًا ؛ قال : ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾[الأنبياء:١٠٤] . والآيات كثيرة (جدًّا) في أنَّ اللهَ – سبحانه وتعالى – يبعث العباد بعد الموت ، وهذا أمْرٌ هَيِّنٌ عليه ، ولكنَّ أصحابَ العقولِ المطموسَةِ والفكر المنتكس لا يؤمنون بذلك .

◘ قَالَ المُصَنِّفُ : (وَتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ) :

🕮 الشَّرْحُ :

فنحْنُ ذَكَرْنَا أَنَّ أركانَ الإيمانِ سِتَّةٌ – كما في الحديثِ – ، وَهِيَ : (**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**) .

◘ **قَالَ المُصَنِّفُ : " وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].**

ودَلِيْلُ القَدَرِ : قَوْلُهُ – تَعَالَى – : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] " . انتهى .

● **وَمَعْنَى القَدَرِ – لُغَةً – : قَالَ ابْنُ سِيْدَهْ** : القَدْرُ والقَدَرُ الْقَضَاءُ والحُكْم ، وهو ما يُقَدِّرُهُ اللهُ – عزَّ وجلَّ – من القضاءِ ، ويحكُمُ بِهِ من الأمُورِ ؛ قَالَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ [القدر:١] ؛ أَي : الحُكْمِ ؛ كَمَا قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ **فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ [الدخان:٤] (١) .

وقال – تَعَالَى – : ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا** ﴾ [الأحزاب:٣٨].

وقال – تَعَالَى – : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:٤٩].

وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ : " **كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** " (٢) .

فيجب على العبد أن يكون عنده يقينٌ جازمٌ أنَّ الله خَلَقَ كلَّ شيءٍ في الكون ؛ سواء أفعاله وأقواله ، وحركاته وسكناته ، وطاعته ومعصيته ، وأنه مكتوب في اللوح المحفوظ ؛ فسبحانَهُ كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ ، وقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : " **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ قَالَ : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ** " (٣) ، ولكن هذه الكتابة لا تنافي مشيئة العبد وإرادته .

● **فالله لَهُ مشيئةٌ :**

---

(١) " لسان العرب " (٥/٧٤) .

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٦٥٣) .

(٣) رواه أبو داود في " السُّنن " (٤٧٠٠) ، وهو في " صحيح " أبي داود (٤٧٠٠) .

قال – تعالى – : ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾ [القصص:٦٨].

وقال – تعالى – : ﴿**وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقال – تعالى – : ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [آل عمران:٦].

وقال – تعالى – : ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ [النساء:٩].

● **والعبدُ لَهُ مشيئةٌ :**

قال – تعالى – : ﴿ **فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا** ﴾ [النبأ:٣٩] ، ولكن مشيئَتُهُ محاطةٌ بمشيئةِ الله سبحانه وتعالى ؛ فللعبد مشيئةٌ وإرادةٌ واختيارٌ ، ولكنَّهُ لا يستطيع أن يفعلَ شيئًا إلاَّ بإذن الله .

فكتابة مقادير الأشياء لا تُنَافي أنَّ للعبد اختيارًا ومشيئةً ، ولذلك مسألة القدر مسألةٌ غايةٌ في الأهمية ، وقد ضَلَّت فيها أفهامٌ ، وزلَّت فيها أقوامٌ ، بين الإفراط والتفريط ؛ حتى حادُوا عن منهج أهل السنة والجماعة :

● **ففريقٌ أفرط – وهم الجبرية – قالوا** : ما دام كل شيء مكتوبٌ ؛ فنحن مجبورُونَ على ما نحن فيه ؛ فالطائع مجبورٌ على طاعتهِ ، والعاصي (أيضًا) مجبورٌ على معصيته ، ويقولون (أيضًا) : قدَّرَ اللهُ لهذا أن يكون صالحًا ؛ فليس له اختيارٌ ، ولا مشيئةٌ ؛ إلا أن يكون صالحًا ، وقدَّرَ لهذا أن يكون عاصيًا ؛ فليس له اختيارٌ ، ولا مشيئةٌ ؛ إلا أن يكون عاصيًا ؛ لأَنَّ اللهَ كتب مقادير الخلائق ، وكتب أهل الجنةِ وأهلَ النار ؛ فيستدلُّونَ بقولهِ ﷺ : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ**

مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ : « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى ﴾ [الليل : ٦] (١) .

● **قَالُوا – أعني الجبرية –** : إذا كان كَتَبَ أهلَ الجنةَ وأهلَ النَّارِ ، وحتى حركات العبد وسكناته وعبادته مكتوبةٌ ؛ فلِمَ العَمَلُ ؟!!

◘ **والردُّ عليهم** :

يمكننا أن نوضّحَ – مثلاً صغيرًا – لنُبيّنَ هذا الأمْرَ ؛ فنقولُ : أبٌ عنده ولَدٌ فاسِدٌ ، وهو يعلم حالَهُ ؛ فقام بكتابَةِ أعماله في ورقةٍ لمدة سنَةٍ قادمةٍ ؛ لأنه يعلم ما سوف يفعله ، وكان هذا الولدُ عاصيًا ، وعنده (أيضًا) ولدٌ آخَرُ صالحٌ ، ويعلم ويتوقَّعُ ما سوف يفعلُهُ (جيدًا) ؛ فقام بكتابة ذلك ؛ فكتب أعمال الولد الفاسد ، وكذلك الولد الصالح ، وبعدما مَرَّتِ السنَةُ ، وجد أن ما كتبَهُ على هذين الولدين قد تحقق بالفعلِ ، والسؤال هنا : هل ما كتبَهُ فيه إجبارٌ للولد الفاسد على المعصية ، وللولد الطائع على الطاعة ؟

والجواب : لا ، ولله المثل الأعلى ؛ فَعِلْم الله الذي يعلمُهُ عن عبدِهِ لا ينافي ، ولا يضادُّ مشيئةَ العبد وإرادته ؛ فليس معنى أنَّ الله يعلم ما يفعله العبد أنه أجبره على

---

(١) **أخرجهُ البخاريُّ (١٣٦٢)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) .**

فعله ؛ فالله لا يجبر العبد ؛ لا على العمل الصالح ، ولا على العمل الفاسد ، وإلاَّ ؛ فهذا ينافي العدلَ ؛ قال – تَعَالَى –: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠]، وقال – جل ثناؤه – : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وأيضًا : سبق وأن قلنا – قبل ذلك – : لو أن هناك طلابًا يَدْرُسُون في الجامعة ، وفيهم طالبٌ مجتهدٌ جدًّا مواظبٌ على حضور المحاضرات ، ويُذاكر ، ويُعْلَمُ من حاله ومذاكراته أنه سيكون من الأوائل ، وفعلاً نجح ، وأصبح من الأوائل ، ولكن هناك (أيضًا) طالب معه كان لا يحضر المحاضرات ، ولا يُذاكر ، ولا يفعل أيَّ شيءٍ ، ثم وجده من الأوائل معه ؛ فسَيَقُولُ : هذا ظُلْمٌ ، كيف لم يذاكر ، ونكون سواءً ؟!! لماذا قال هذا ؟ لأنه ذَاكَرَ واجتهدَ ، وهذا الطالب لم يذاكر ؛ فكيف يتساويان ، ولله المثل الأعلى ؛ فكيف يساوي اللهُ العاصي بالطائع ؟!! قال – تعالى –: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] ، وقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم:٣٥].

فمَنْ يَمْلِكُ شَرِكَةً ، وعنده موظَّفٌ مجتهدٌ يقوم بكثير من أعمال الشركة ، والعَمَلُ متوقفٌ عليه ؛ فهل هذا الموظف يُعْطَى من الأموال والمكافات مثلَ مَنْ هو أقلُّ

منه ؟ فأقلُّ درجاتِ العدلِ أن لا يتساوى الموظفُ المجتهدُ بالموظف الكسولِ ؛ فهذا بين البشر ؛ فكيف بربِّ البَشَر أن يُنْسَبَ إليه الظلم ، ويُقَالَ عليه أنه كتب الشقاء على فريقٍ من الناس ، وكتب الجنَّةَ على الفريق الآخر ، وهم لم يعملوا شيئًا ؛ فهذا سَفَهٌ وظُلْمٌ مُنْتَفٍ عَنِ البَشَرِ ؛ فضلاً عن أن يُنْسَبَ لله ؛ فمَن يَقُولُ ذلك ؛ فهذا معناه أنه يَنْسِبَ السَّفَهَ ، وعدمَ الحكمة ، والظلمَ للهِ ربِّ العالمين ، تَعَالَى اللهُ عن ذلك كلِّهِ علوًّا كبيرًا ؛ فالله له الحكمة الكاملة ، وله العدل الكامل ، وله الصفات الكاملة ، والأفعال الكاملة ؛ فلا يمكنُ أن يساوي بين العبد الظالم الطاغي الباغي العاصي والعبدِ الطائعِ المتَّقِي !!

فالذي يقول : إن الله جَبَرَ الطائِعَ على طاعته والعاصي على معصيته = يَنْسِبُ لَهُ الظلم ، ولأفعاله عدمَ الحكمة ، وأن آيات الأحكام والثواب والعقاب والجنة والنار وما يترتب على العمل من جزاءٍ لا معنى له – إذن – على قول هؤلاء ؛ إِذْ ليس لأحدٍ مشيئةٌ ، ولا إرادةٌ ؛ فعلام الجزاءُ ؟

لقد أصبح هذا الفِكْرُ مُنْتَشِرًا اليوم بين الناس ؛ فإذا جلست مع عاصٍ ، وتكلَّمْتَ معه ؛ فتراه يقول لك : ادعُ لي ، وإن شاء الله ؛ سوف يهديني الله ، وقد يحكي لك أنَّهُ كان هناك عاصٍ مثلُهُ ، وفجأة تَابَ ؛ فهو يريد أن يبينَ لك أن التوبة ليست بيَدِهِ ؛ فهو مجبورٌ على ما هو فيه ، ويقولُ (أيضًا) : إذا أراد الله ، وأَحَبَّني، سيهديني ، وربَّما يستدلُّ لك (أيضًا) بقول الله – تعالى – : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [القصص:٥٦] ، ثُمَّ يتوقف ،

ولا يُكمل الآية ، وتكملتها ﴿ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ ؛ فاللهُ – سبحانه – يعلم من يُرِيْدُ الهداية ؛ فييسرها له ، والذي يُرِيْدُ البَغْيَ والظُّلْمَ والعصيانَ والإعراضَ ؛ سيُيَسِّرُ له ذلك كذلك ؛ قال – تعالى –: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)** ﴾ [الليل:٥:١٠] ؛ فهذا ميَسَّرٌ لطريق العُسْرَى بِبَغْيِهِ وعصيانِهِ !! وهذا مُيَسَّرٌ لطريق اليُسْرَى بصلاحِهِ وإقبالِهِ على الله ، ولكنَّ الله لم يجبر هذا ولا ذاك ، والله سبحانه وتعالى غنيٌّ ، لا تزيد طاعةُ العباد في ملكِهِ شيئًا .

وكذلك العذابُ العارِي عن الحكمةِ قد يكونُ بسببِ شهوةٍ عند العبْدِ ، أو أنه يكره شخصًا ؛ فيريد أن ينتقم منه ، أو أن هذا الشخص أخذ منه حقًّا ، ويريد أن يردَّهُ ، وهذا ممتنعٌ عن الله ؛ فسبحانَهُ .

فهو لا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، ولا أحد يستطيع فِعْلَ شيءٍ ؛ إلا بأمرِهِ ؛ إما بالأمر الكونيّ ، أو الشرعيّ ، وكلاهما بمشيئتِهِ ، مع اليقين الجازم أن تَقْوَى الأوليين والآخريين لا تَزِيْدُ في ملكه شيئًا ، وفجُورَ الأوليين والآخريين لا يُنْقِصُ من ملكهِ شيئًا ؛ قال – تعالى – في الحديث القدسيّ : « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ

ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا » ([1]) .

● **إذن ؛ فلمَاذَا خَلَق الجنَّةَ والنَّارَ ؟**

●● **والجوابُ** : أننا نَعْلَمُ أنَّ الله خلق الإنس والجن للعبادة ، وكَمَالُ العدل يقتضي أن الطائِعَ يُثَابُ ، والعاصي يُعاقَبُ ؛ فكما يكونُ في الدنيا أنَّ الطالب إذا ذهب إلى جامعتِهِ ، ووجدَ أنه الأول على دفعتِهِ ؛ لأنه ذَاكَرَ ، واجتَهَدَ ، وبَذَلَ مجهودًا ، ثم إذا وجد طالبًا آخَرَ لم يذاكر ، أو لم يَبْذُل مجهودًا ، ولكنه مع ذلك خرجَ من الأوائل ؛ سيَحْزَنُ الأولُ ، وسيَشْعُرُ بالظلم ؛ لأنهما قد تساويا بلا وجهِ حقٍّ ، ولله المثل الأعلى ؛ فمِنْ كمال عدلِهِ أن جعل الثواب والعقاب ، وخلق الجنة والنار ، ولكنه ليس له حاجةٌ لتعذيب العبادِ ، أو إثابتهم ؛ فلابد أن نَفْهَمَ ذلك ؛ لأنه ضلت فيها أفهام ، وزلَّت فيها أقدام كثيرةٌ (جدًا) ولا زالوا على ذلك .

● **فإذا جلَسْتَ مع العصاة ؛ ستجدهم يتكلَّمُون بمنْطِقِ الجَبْرِ :**

فتراهم يذكرون لك قصصًا لأشخاصٍ قد هداهم الله ، ولكن هؤلاء الأشخاص الذين هداهم الله ؛ هل هم معهم عصًا سحريةً ؛ فَهُدُوا ؟!! فلابد أنهم أخَذُوا بالأسباب ، وعَمِلُوا أعمالاً بسببها هداهم الله ؛ فالمرأة – مثلاً – التي لبستِ اللباس الشرعيَّ ؛ فهي جمحت شهوتها ؛ فكلُّ امرأةٍ تحبُّ اللبْسَ والزينةَ – ، وإلاَّ تكون خرجت عن فطرتها التي فطرها الله – ولكنها جاهدت نفسها ، وتركت

([1]) أخرجه مسلمٌ (٢٥٧٧).

ذلك ؛ إرضاءً لرب العالمين ؛ فجاهدت نفسها لحضور دروس العلم ، وأخذت بأسباب الهداية ، وليس كما يقولون : لما (يريدُ) الله (ويأذَنُ) !!! نعم .. لما (يُرِيْدُ) اللهُ – تعالى –، ولكن ؛ لابُدَّ من الأخذ بالأسباب ؛ فاللهُ – سبحانَهُ – قد يهدي هذا ، ولا يهدي ذاك ؛ لأنه عنده ذنوبٌ ومعاصٍ تمنعه من الهداية ؛ قال – تعالى –: ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [فصلت:٤٦].

●● وأيضًا ؛ هناك الفريق الثاني (القدرية) :

وهم الذين يقولون : إنَّ الله لم يخلق أفعال العباد ، ولا حركاتهم ، ولا سكناتهم ، وقد قال – تعالى – : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦] ، وقال : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] ، ولم يعقلوا هذه الآيات ، واحْتَجُّوا بأنه إذا أَثْبَتْنَا كتابةَ اللهِ لأعمال العباد ؛ فبهذا يكون العباد مجبورين ! فعلام العَمَلُ ؟!

فهؤلاء ضلُّوا (أيضًا) ؛ لأنهم نَفَوْا الكتابَةَ ، ونَفَوْا مشيئةَ اللهِ ، وجعلوا للعبد مشيئةً مستقلَّةً غيرَ محاطَةٍ بمشيئة الله ؛ فالذي يريد أن يصلِّي ؛ فهذه مشيئتُهُ ؛ فهو أراد الصلاة ، ولكن لكي يقوم ويتوضأ ، ويقِفُ ، ويركع ، ويسجد ؛ فهذا بتوفيق الله ؛ قال – تعالى –: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] ؛ فهؤلاء لم يفهموا ذلك ؛ فهم أرادوا أن يُثْبِتُوا للجبرية أنَّ العباد غيرُ مجبورين ؛ فنَفَوْا مشيئةَ الله ، وكتابتَهُ ، وغلاتهُم نَفَوْا عِلْمَهُ ؛ فكذَّبوا الكتابَ والسُّنَّةَ ، وزعموا أنَّ هناك أشياءَ تحْدُثُ في الكون بدون عِلْم الله ؛ فضلُّوا وأضلُّوا .

●● أمَّا أهلُ السنةِ والجماعةِ :

فقد وَفَّقَهُم الله – تعالى– للحقِّ ، بكرمِهِ ، وإحسانِهِ ؛ فعَلِمُوا أنَّ الله كتب أفعال العباد ، ولكنَّهُ لم يجبرهم عليها ، وأنَّ العبد له إرادةٌ ، ومشيئةٌ ، واختيارٌ ، ولكن مشيئتُهُ محاطةٌ بمشيئةِ الله .

فاللهُ كَتَبَ أهلَ الجنة وأهلَ النار ؛ لأنه يعلم من الذي سيطيعُهُ ، ويُقبل عليه ، ويحبُّهُ ؛ فكتَبَهُ من أهل الجنة ، ويعلم من الذي سيعصيْهِ ، ومهما قيل له مِنْ آياتٍ تُخَوِّفُهُ ؛ فلن يستجيبَ ؛ فكتَبَهُ من أهل النار.

وها هم الصحابَةُ ﷺ نزلت عليهم الآيات ، والنبيُّ محمَّدٌ ﷺ ذَكَرَ لهم هذه الأحاديث ، وعَلَّمهم القَدر ، ولكن ما تكلمَ أحدٌ منهم بهذا الذي قاله أهل الضلالِ !! ولكن فقط ؛ قال له رجلٌ : أفلا نَعْمَلُ ونَتَّكِلُ ؟ ولكن النبيَّ ﷺ أرشدهُ ، وقال – له – : " **اعْمَلُوا ؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** " (١) ؛ فلم يَقُلْ له الرَّجُلُ : هل معنى : " **فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** " أننا مجبورون ؛ فالصحابة فَهِمُوا أنَّ الكتابة لا تَتَنَافَى مع مشيئة العبد وإرادته ؛ فعقولهم كانت سديدةً ، وقلوبهم كانت سليمةً ، مقبلَةً على الله ؛ فلم يكن عندَهُم هذا الفهم السقيمُ ، وهذا الالتباسُ والتكلُّفُ الممجوجُ !!

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٥) ، ومسلمٌ (٢٦٤٧) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

● قال شيخ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله : " العبد يدفع القَدَرَ المحْظُورَ بالقَدَرِ المأْمُورِ " ([1]) .

فالذي يحتجُّ بالقَدَرِ على فعل المعاصي ؛ نَقُولُ لَهُ : ادْفَعِ القَدَرَ المحظورَ بالقدرِ المأمورِ ؛ فإذا قلتَ : لقد كُتبت عليَّ المعاصي ، فسنَقُول لك : ادفعها بالقدر المأمورِ ، وذلكَ أن تترك المعصية ولا ينبغي أن تقول : أنا رجلٌ عَاصٍ ، ولو أراد الله هدايتي سيَهْدِيني ؟! فمَنِ الذي أخبرك أن الله لا يُرِيْدُ أن يَهْدِيَكَ ؟! فلو كنت عاصيًا وخائفًا أن تكون من أهلِ النار ؛ فادفع كلَّ ذلك بالقَدَرِ المأمور ، واترك المعاصي ، وافعل أوامِرَ اللهِ .

● **وأيضًا : الذي يقولُ : إنَّ كل شيءٍ مكتوبٌ ، وأنا لن أعْمَلَ !!**

فنقول له : ما دام ذلك كذلك ؛ فامتنع – إذن – عن الطعام والشرابِ ، ولا تحْمِي نَفْسَكَ من بَرْدِ الشتاءِ ، بارتداء الملابس الثقيلة ؛ فهل رأيت أحدًا يفعل ذلك ؟!!

بل إذا ذاق ألمَ الجُوْعِ ؛ حتمًا سيأكُلُ ، وإذا شَعَرَ بالبرد ؛ أغلق النوافِذَ ، ولَبِسَ ثقيلاً ؛ فأخَذَ بالأسباب التي تدفع عنه البَرْدَ والجُوعَ ، وكذا مَنْ أَرَادَ النَّجَاحَ فإنه

([1]) **قال في " مجموع الفتاوى " (٨/٣٠٧) : " وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَدْفَعَ مَا قُدِّرَ مِنَ الْمَعَاصِي بِمَا يُقَدَّرُ مِنَ الطَّاعَةِ ؛ فَهُوَ مُنَازِعٌ لِلْمَقْدُورِ الْمَحْظُورِ بِالْمَقْدُورِ الْمَأْمُورِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا هُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الْأَوَّلِينَ والآخرين مِنَ الرُّسُلِ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ – . ".**

يَسْعَى إليه بتعاطِي أسبابِهِ ، ولا يَقُولُ : إنَّ كل شيءٍ مكتوبٌ ، ولا يقولُ : لو أنَّ اللهَ قَدَّرَ النَّجَاحَ نجحْتُ ، بدون أن آخُذَ بالأسبابِ !! لا يقول ذلك عاقلٌ البتةَ .

فلماذا في أمور الدنيا نأخذ بالأسباب ، ولا نأخذها في أمور الدين ؛ محتجين بأن الله لو قَدَّرَ هدايتنا لهدانا ؟!! أليس هذا من أعظمِ الضلال ؟! فلابد أن نأخذ بالأسباب في كل شيءٍ ؛ لأن الله – سبحانه – ربط الأسباب بمسبباتها .

وأيضًا : لقد حَثَّنَا الله في القرآنِ عَلَى الأعمال الصالحة ، وبَيَّنَ لنا فَضْلَ العمل الصالح ؛ فلو أنَّ ذَلِكَ لا قِيْمَةَ له ؛ فلماذا أمرنا بِهِ ؟ ولماذا رَتَّبَ الجَزَاءَ في الآخرة على الأعمال إذا كانت الأعمَالُ لا قيمة لها ؟!! فَهَلِ اللهُ يَفْعَلُ أَفْعَالاً ، ويأمُرُنَا بها سُدَىً ؟! حَاشَاهُ ؛ فهو الحكيم الذي له الحكمة الكاملة ؛ فقد أَمَرَنَا أن نُصَلِّيَ ونَصُومَ ونُحُجَّ ، ونهانا عن الكَذِبِ ، والخيانة ، والغيبة ، والنميمة ، وغير ذلك من الأشياء التي نهى عنها ؛ فإذا كان العبد مجبرًا ، ولا يَدَ لَهُ في الفِعْلِ ؛ فَعَلامَ الأَمْرُ والنَّهْيُ ؟!!

فكلُّ هذِهِ أشياءُ نَرُدُّ بها عَلَى من يحتج بالقَدَرِ ؛ فهم أعرَضُوا عن دينِ اللهِ ، وأصبحوا يَعِيْشُونَ في غفلةٍ ، ولا يريْدُونَ أنْ يتَعَلَّموا ؛ فيَحْتَجُّون لِذُنُوبهم ولمعاصيهم بِالقَدَرِ ، وهم في الدُّنْيَا لَوْ فَسَدَ صُنْبُورُ الماءِ ، وأغرَقَ منازلهم ؛ لذَهَبُوا سريعًا ، وأخذوا بالأسباب ، وأتوا بمَن يُصلحُهُ لهم ، ولَنْ يقولوا : لو شاء الله لانْصَلَحَ الصُّنْبُورُ ، ولَنْ نأتِيَ بمن يُصْلِحُهُ ؛ فاللهُ – سبحانَهُ – قادرٌ على أن يُصْلِحَ هذا الصُّنْبُورَ ؛ فَلِمَاذَا فَزِعْتَ وأَتَيْتَ بمن يصلِحُهُ لك ؟ لأنك تعلم أَنَّهُ لابُدَّ مِنَ الأخذِ

بالأسبابِ ؛ فكما أخذتَ بالأَسْبَابِ في الأمور الدنيويةِ ؛ فواجبٌ عليك أن تأخُذَ بالأسباب في الأمورِ الدينيةِ ؛ حَتَّى لا تُلْقَى في النَّارِ .

◘ للإيمانِ بالقَدَرِ ثَمَرَاتٌ جليلةٌ ، منها [1] :

● الأولى : الاعتمادُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى – عند فعل الأسباب ، بحيث لا يعتمد على السبب نفسِهِ ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ بقدَرِ اللهِ :

فالإيمان بالقدر يجعلك تأخذ بالأسباب ، ولكن لا تعتمد عليها ؛ لعِلْمِكَ أنها مجرَّدُ أسبابٍ ، وأنَّ الله – سبحانه وتعالى – هو ربُّ الأسباب ، وآمِرُهَا ومحرِّكُها ؛ فمثلاً : شخصٌ مريضٌ يذهب للطبيب ، ويأخذ الدواء ؛ فبَعْدَ ذلك إن شفاه الله ؛ فالحمد لله ، وإن لم يُشْفَ ؛ فهذا قَدَرُ الله له ، وكذلك الطالبُ الذي كان يأخذ بأسبابِ النَّجاحِ والتفوقِ ، ويجتهدُ في أن يدخل كليةَ الطِّبِّ ، فحدثَتْ له ظروفٌ ، ولم يوفَّقْ في الامتحان ؛ فوجد نفسَهُ دخل كلية أقلَّ منها ؛ فليحمد الله ؛ فهذا قَدَرُ الله ، وهذا هو الخير له ؛ فكم من رجلِ أعمالٍ مُوَفَّقٍ (جدًا) ، وعنده ملايين ، ولم يتعلَّم في جامعةٍ ، وكم من طبيبٍ غيرِ ناجِحٍ ، فمن أخذ بالأسباب ، ولكن بتقديرِ اللهِ مُنِعَ أن يصل إلى ما يريدُ ويأملُ ؛ فليرضَ بقدرِ اللهِ .

قال الله – سبحانه – لمريم عليها السَّلامُ : ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا** ﴾ [مريم:٢٥] ؛ فمريمُ كانت نفساءَ ، والنفساءُ تكون ضعيفةٌ ، والنخلَةُ جِذْعُها لا يُهَزُّ ؛ فهو شديدٌ (جدًّا) ، ولَكِنَّ اللهَ أرادَ منها أن تأخذ

---

[1] " شرح الثلاثة أصول " للشيخ ابن عثيمين (ص:٥٩) .

بالأسباب ، وقد كان من الممكن أن يُساقط عليها الرطَبَ بدون أن تهزَّ جذْعَ النخلَةِ ؛ كما كان يرزقُهَا ، وهي في المحرابِ بِدُون أسبابٍ .

● **ولكن الذي يمتنِعُ عَنِ الأَخْذِ بالأَسْبَابِ خاسِرٌ :**

بل فِعْلُهُ هذا طَعْنٌ في الشريعةِ ؛ لأن الله أَرَادَ مِنَ العبادِ الأَخْذَ بالأسبابِ لصَلاحِ دُنْيَاهُمْ ودِيْنِهِمْ ؛ فإذا لم نأخذ بها تعطَّلَتِ الحياةُ ، وتعطل الدينُ كلُّه ، ولكن مع هذا لا نعتَمِدُ على الأَسْبَابِ ؛ لأنَّ الأسبابَ (وَحْدَها) لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا ترزق ولا تمنع إلا بأمر مُسَبِّبِ الأسبابِ تبارك وتعالى .

وقد ثبتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال : " **لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ " قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " لاَ ، وَلاَ أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ** " (١) .

● **الثانية : أن لا يَعْجَبَ المرْءُ بِنَفْسِهِ عند حُصُولِ مُرَادِهِ ؛ لأنَّ حُصُولَهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – :**

فمن ثمراتِ الإيمانِ بالقَدَرِ : إِزَالَةُ العُجْبِ عَنِ العَبْدِ ؛ فلا يَعْجَبُ بِنَفْسِهِ ؛ لأن النَّفْسَ (أحيانًا) إذا وَصَلَتْ لمكَانَةٍ عاليةٍ ؛ سواء مكانَةً دِيْنِيَّةً ، أو دُنْيَوِيَّةً ، قد يدخل عليها العُجْبُ أو الكِبْرُ ! وعلاجُ ذَلِكَ : بالإيمان بالقَدَرِ ؛ فحينما يُذكِّرُ الإنسانُ نَفْسَهُ أنَّ الذي قدَّرَ له هذه المكانة هو اللهُ ، وهو مَنْ مَنَّ عليه بذلك ؛

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦) .

تنكسِرُ النَّفْسُ ، وتعودُ ، ولا تتكبر ، ولا تتجبر على العبادِ ؛ لِعِلْمِهَا أنَّ الذي مَنَّ عليها بهذه النِّعْمَةِ هُوَ اللهُ – سبحانه وتعالى – ؛ فالفضلُ ابتداءً وانتهاءً منه .

● **الثالثة : الطمأنينَةُ والرَّاحَةُ النَّفْسِيَّةُ بما يجري عليك من أقدار اللهِ – تَعَالَى – ؛ فلا تَقْلَقْ بِفَواتِ محْبُوبٍ ، أو حُصُولِ مَكْرُوهٍ :**

قال – تَعَالَى – : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد:٢٢] ؛ فهذا دليلٌ على أنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ من قَبْلِ خَلْقِ السموات والأرض ؛ فترتَاحَ النَّفْسُ بذلك ، وتطمَئِنَّ .

وأيضًا ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن:١١] ، قيل : أي : مَنْ يؤمن بالقَدَرِ ؛ فالإيمانُ بالقَدَرِ يهدي القلوبَ ، والإنسان إذا آمن بالقَدَرِ حصَلَ له في قلبِهِ سكينةٌ ؛ لأنه لن ينْشَغِلَ بشيءٍ لم يُقَدِّرْهُ الله له ؛ فهو يسعى ويجتهد ؛ لكي يَصِلَ لشيءٍ مُعَيَّنٍ ؛ فإذا لم يَصِلْ إليه حَدَثَ له سكينةٌ في قلبِهِ ؛ لأنه يَعْلَمُ أنَّ اللهَ لم يُقَدِّرْهُ ، وَهَذَا خَيْرٌ .

والله أسألَ أن يَهْدِيَ قُلُوبَنَا ، وأن يَشْرَحَ صدورَنَا ، وأن يقوِّي إيمانَنَا .